العلم

لسان حزب الاستقلال

تأسست في 11 شتنبر سنة 1946

المدير: عبد الله البقالي السنة: 65 العدد: 22 465 رئيس التحرير: عمر الدركولي

الأربعاء 27 من محرم 1434 الموافق 12 من دجنبر 2012 / الإيداع القانوني: 03/1946 / ISSN 0851-0296

مذكرات

الأستاذ عبدالعزيز بنعبدالله من يوم عرفته إلى يوم ودعته...!

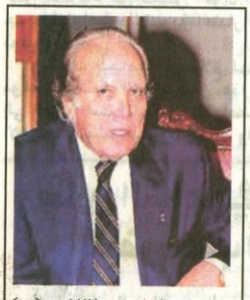

د. عبدالهادي التازي (×)

هذا أستاذ جليل القدر، واسع الاطلاع، لا يزعجك ولا يضايقك ولا يؤذيك، ولا يتآمر عليك! فهو يفضل أن يعيش مع أبحاثه في مختلف حقول المعرفة، وطني غيور، مسلم صادق، يتألم عندما يشعر بأن بني قومه يتألمون، ويبتهج عندما يراهم في حالة ابتهاج... كنت أحترمه كما كان يحترمني ولا أذكر أنني كنت معه في يوم من الأيام على خلاف إلا عندما يظهر لي أو يظهر له رأي مخالف، ومع ذلك كنا نتبادل العون في القضايا ذات الاهتمام المشترك كما يقولون بلغة اليوم، كنت أعتبر أقاربه أقاربي وذريته ذريتي دون أن أعرفهم ودون أن يعرفوني... أحمده أحمدي وسعدي سعده!!

كنا نشترك في الدراسة على أستاذ كبير كان يجمعنا حبه وتقديره. والالتفاف حوله، هو العلامة القدير والمحدث الشهير سيدي المدني بن الحسني الذي كنت أحضر مجالسه العلمية بالمسجد الأعظم بمدينة الرباط، هذا الشيخ الذي أعتز به من بين شيوخي الكثيرين الذين تتلمذت عليهم في فاس وفي غير فاس...

كان يعطف علي زميلنا الراحل ويؤثره بالحديث الخاص لأنه كان يتنسم فيه نوعا من الاطلاع لا يوجد عند الآخرين وكنا نغبطه ولكن لا نغار من ذلك التقريب اعتقادا منا - وأنا أتحدث عن نفسي - بأن الأستاذ عبدالعزيز يستحق ذلك التقريب.

فالرجل كان يتوفر على كثير من الأفكار التي اكتسبها عن طريق تعلمه في الخارج، والرجل لا يفتأ يراجع الكتب العصرية ويتفحص ما قاله الآخرون عن الإسلام والشؤون العربية.. وهي المسائل التي كان الشيخ سيدي المدني يحب أن يطلع عليها.. ويعرف اراء الآخرين عنها!! تعرفت عليه إذن عن طريق سيدي المدني.

هناك شخصية ثانية كانت تتحدث لي عن سيدي عبد العزيز بتقدير كبير وكأنها كانت ترجو مني أن يكون عبد العزيز لي قدوة: العم الحاج أحمد التازي التيجاني الطريقة رحمه الله..

كانت المدرسة الوطنية تقدم لنا الطرق الصوفية، ومنها التيجانية، على أنها طرق ضالة مضللة!!، فكنت أندفع، خطأ، في هذا الالتجاء، وأنظر إلى السيد عبد العزيز على أنه «تيجاني»! ولا أكاد أتصور أن في استطاعة المرء أن يكون وطنيا وعصريا وطرقيا وتيجانيا في الوقت الواحد! ولم تتضح لي الرؤية حول هذا الإشكال إلى أن سألت سيدي المدني حول إمكانية الجمع بين الاتجاهين؟! ولم أكن أتوقع من سيدي المدني أن يرجعني إلى الصواب عندما قال لي: أسمعت أن التجانيين يرددون قولا غير قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله؟!

وتأكدت لي هذه القولة عندما وجدت نفسي في دولة السنغال في أول مهمة لي بإفريقيا السوداء... هناك أمنت بصدق رسالة الشيخ أحمد التيجاني رحمه الله على ما أعلنته في بعض تآليفي!! هناك في داكار استنزلت الرحمات على الشيخ وأمسيت تقريبا من مريديه!!

المهم أن أقول إنني أمسيت أكثر حبا للأستاذ عبد العزيز الذي قدرت فيه ثباته وصراحته واستقامته وسعة أفقه وكيف أنه استطاع أن يجمع بين ثقافة السلف وانفتاح الخلف... وازداد اتصالي به عندما خبرته أثناء صحبته في بعض الأسفار خارج المغرب حيث أمسى لي الأخ والرفيق والصديق...

كان زميلا لي في المجامع العربية التي كنا ننتسب إليها معا وخاصة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي كان أعضاؤه يكنون للأستاذ عبد العزيز كل التقدير والاحترام ويسمعون الى تدخلاته بإمعان، أما مجلسه في أكاديمية المملكة المغربية فإنه كان على مقربة من مجلسي... أستعير قلمه، وأعطيه ورقتي!

الأستاذ عبدالعزيز بنعبدالله

وأسعد بأن أقول: إنني كنت أستفيد من تدخلاته في اللغة والأدب والتراث، وكنت أعلق دائما على مايقوله ويراه، وهذا جانب مهم ينبغي للباحثين حول الأستاذ عبد العزيز أن يرجعوا إليه في أرشيف الأكاديمية...

مشاركة واسعة وفعالة على كل الصعد، ومختلف الحقول.... الأمر الذي نرى أثره في عدد ما نشره من كتب ومقالات بالعربية وغيرها، مما يبرر القول بأن الرجل كان كما يقول التعبير القديم علامة (مشاركا) Epistemologique.

ينبغي أن نرجع لما يوجد في دليل أكاديمية المملكة المغربية عام 1431 = 2010 لنقرأ عن هذه «المشاركة» المتنوعة في نشاط الرجل طوال عمل الأكاديمية منذ عام 1980 من القرن الماضي، خذ لك لائحة مختصرة لعناوين بعض تدخلاته:

× القدس والمغرب في أطوار التاريخ.

× الأزمات الفكرية حقيقتها وأسبابها.

× العوامل الاجتماعية والاقتصادية للمشكل الديموغرافي المغربي.

× إمكانات اقتصادية وسيادة دبلوماسية.

× الفكر الإسلامي وأثره في فلسفة موسى بن ميمون وتطور التقاليد اليهودية.

× ألف عام من كفاح المغرب ضد القرصنة في البحر الأبيض المتوسط.

× المجموعة المغاربية وقوامها الجيوفزيائي والاجتماعي والاقتصادي.

× الفن المعماري بالمغرب والأندلس الأخذ والعطاء.

× أسباب ضعف الطاقة العلمية والتكنولوجيا في العالم الثالث.

× المنظور الاجتماعي والاقتصادي في التصميمات الحسنية الحدائية.

هذا إلى جانب مناقشاته في أعمال الأكاديمية، نشاطه بكل عناية وموضوعية ولاسيما في شأن اللغة العربية وحول الإسلام، بحيث إن دفاعه عن أفكاره لا يعرف هوادة ولا مهادنة، وقد يحتج على بعض المواقف بمغادرته القاعة ولكن ليعود إليها بعد أن تهدأ النفوس وتعود الأجواء إلى طبيعتها.. ومعنى ما أقوله هو أن الرجل لم يكن «إمعة» يقبل كل ما يقال أو يسمع، ولكنه كان أمينا على أفكاره التي يؤمن بها محترما للثوابت التي عرفها منذ نشأته بين أحضان والده وشيخه!

من أجل كل هذا كان رجلا محترما لدى الجميع، وحتى من الذين كانوا يعارضونه في تصوراته وتقديراته، كانوا هم أيضا يحترمونه ولا ينادونه إلا بلقب السيد!

شيء هام في حياة الرجل لم يعرفه من كتبوا عنه، ذلك أن الرجل كان أريحيا ذا نكتة، وذا مزاج سليم، وذا مزاح (بالحاء) وهو يعلق على مرويات بعض الناس مما يدخل في إطار المباسطات و«المطايبات» على حد تعبير المحدثين، وكم كانت مروياته بالغة العذوبة والرقة.. وهو مع ذلك لايليث أن يعود بك إلى ساحة الجد والصرامة التي عرف بها!

شاركته في عدد من المؤتمرات، منها ما كانت زوجتي حاضرة فيه، ومن هنا كان له حضور في بيتي، بين أهلي وذوي، ذكر جميل أثيل مقرون بكثير من الحب والتقدير من الذين يعرفون عن المجالس التي أحضرها، فإذا أضفت إلى كل هذا تعرفي - عن كثب - على والده العلامة المدرس عبد الواحد الذي كان ضحية لعدوان من المستعمر المحتل للبلاد، عندما استشهد ذات يوم باسم (جان دارك) على أنها بطلة مناضلة مقاومة، في أحد مجالس علمه بجامع مولاي سليمان بمدينة الرباط بدعوى أنه خرج عن موضوع الدين الذي كان يشتغل عليه!! ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تدخل العاهل المغربي الملك محمد بن يوسف الذي عاتب الشيخ عبد الواحد على ذكره (جان دارك) وإهماله مثلا للسيدة عائشة أم المؤمنين!!

الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله يحتاج من بناته السيدات الفضليات ومن ابنه الأستاذ أحمد، الذي يحمل اسم الشيخ أحمد التيجاني، هن مطالبات وهو مطالب بالسهر على تراث الوالد الذي يعتبر «مرجعية» عظيمة بالنسبة إليهم نسبا وصهرا...! وبالنسبة إلينا نحن المغاربة.. الكل مطالب بإعداد جرد كامل لنشاطه، الكل مطالب بتسجيل ما قيل عنه وما كتبه هو وما قدمه للمغرب، سواء عندما اشتغل بالصحافة الوطنية أيام الاستعمار، أو عندما كان مديرا أمينا للمحافظة العقارية بعد استرجاع الاستقلال، وعندما كان مديرا للمكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط التابع لجامعة الدول العربية، أو عندما كان يمارس الأستاذية بجامعة القرويين أو جامعة محمد الخامس، كان له في كل تلك المؤسسات أصداء جيدة يجب أن نتذكرها ونقدمها لجيلنا الحاضر...

يجب أن نقدم للجمهور لائحة بالعشرات من المؤلفات التي سهر على كتابتها. كم تأثرت وأنا أعوده في آخر أيامه بمستشفى الشيخ زايد بمدينة الرباط وكان محاطا بثلة من بناته السيدات الفضليات، كان ذلك زوال يوم الخميس تاسع ربيع الأول (موافق 2 فبراير 2012).

وتذكرني باسمي وابتسم لي مشيدا بصداقتي له، ولم أكن أتصور أنه سيلبي دعوة مولاه بعد يومين اثنين رحمه الله!

لم تكن لي نية بتلك العيادة لو لا تنبيهي من لدن طبيبتنا المشتركة الدكتورة سمية، كنت أنا أيضا نزيل المستشفى لإجراء بعض الفحوصات التي تتطلبها متاعب التسعين!

بقي علي بعد هذه الكلمة المقتضبة في حق أخي عبد العزيز، بقي علي أن أتقدم بالشكر الجزيل للمشرفين على مكتب تنسيق التعريب الذين برهنوا على بورهم بهذا السيد الذي مر قبلهم على هذا الطريق وعمل فيه بجد وإخلاص على خدمة اللغة العربية...

وإلى جانب مكتب تنسيق التعريب أتقدم بمواساتي لسائر المجامع والأكاديميات التي كان ينتسب إليها ويعمل فيها بعزيمة العلماء وإرادة الأوفياء الذين يؤمنون إيمانا قويا بالقولة السائرة: «ماضاع حق وراءه طالب».

ولا أنسى بعد هذا كله جمعية رباط الفتح التي اهتمت بخزانته ورحبت بتراثه وبوأته أحسن مكان خدمة للعلم والفكر والثقافة.

(×) عضو أكاديمية المملكة المغربية ومجامع اللغة العربية.